الفصل الأول

إفريقيا
(الأقاليم والسكان والمعتقدات)

أولاً : أهمية إفريقيا وأقاليمها

ثانيا :التركيب السكاني

ثالثاً : المعتقدات الدينية للأفارقة قبل الإسلام

1- عبادة أرواح السلف (الأجداد)

2- الطوطمية

3- عبادة الأصنام

4- تقديس الحكام

5- المجوسية

6- تقديس أله السماء

7- اليهودية

8- النصرانية

أولاً :أهمية إفريقيا وأقاليمها :

تُسمى المنطقة الواقعة جنوب الصحراء الكبرى في العصور الحديثة والمعاصرة باسم إفريقيا جنوب الصحراء، وهي تسمية أُطلقت على المنطقة من قبل المؤرخين الغربيين وتم التعامل معها واستخدامها تبعاً لموقع المنطقة، إلا أنها عُرفت من قبل المؤرخين والجغرافيين العرب المسلمين باسم بلاد السودان فهم أول من أطلق عليها وعلى سكانها ذلك الاسم فقالوا: ((السودان بعد أن استوحوا لون بشرة القوم))[1]، ويشير القلقشندي إلى أن ((أهلها- بلاد السودان ـ طوال في غاية السواد وتفلفل الشعور...))[2] وهناك دلائل أخرى تؤكد الترابط بين التسمية ولون بشرة السكان، إذ أكد ابن خلدون ذلك بقوله: ((وقد نجد من السودان أهل الجنوب من يسكن الربع المعتدل أو السابع المنحرف إلى البياض، فتبيض ألوان أعقابهم على التدريج مع الأيام، وبالعكس ...))[3]، ويلاحظ من خلال النص التأكيد على اللون وارتباطه بالمناخ، والتي من خلالها تمت تسمية المنطقة .

وكان استخدام مصطلح السودان تمييزاً لهم عن سكان الصحراء المغاربة، إذ تم استخدام المصطلح من قبل المؤرخين السودان كذلك[4]، كما تم استخدام مصطلح بلاد التكرور كمرادف لبلاد السودان ولاسيما من قبل المؤرخين المغاربة،إذ إن أغلب المصادر المغربية والسودانية بعد البكري قد استخدمت مصطلح (بلاد التكرور) كمرادف لمصطلح بلاد السودان[5]، في حين جعلته المصنفات المشرقية خاص بأحد طوائف السودان (جنس أو أمة) [6]، الساكنين في المنطقة الواقعة بين نهر النيجر والنيل المصري أي المنطقة المعروفة بالسودان الأوسط[7].

إفريقيا جنوب الصحراء أو كما سميت ببلاد السودان يحدها من الشرق البحر الأحمر، والمحيط الأطلسي من الغرب، ويحدها من الشمال الصحراء الكبرى، ومن الجنوب الغابات الاستوائية ((الخراب مما يأتي خط الاستواء))[8]، وبلاد السودان واسعة وكبيرة، إلا أنها ((قفرة في معظمها وليس لها اتصال بشيء من الممالك والعمارات إلا من وجه المغرب لصعوبة المسالك))[9]، وبقيت كذلك حتى القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي حيث اكتشفت عدة مسالك أخرى للوصول إليها من الشرق ومن الشمال[10]، ففي الفترة السابقة لم يكتب الجغرافيون العرب القدامى شيئاً مفصلاً عن أرض السودان فيما عدا الحديث عن منطقة الواحات، وبعض الشيء عن خطوط التجارة، حتى مجيء المؤرخ العربي البكري المتوفى سنة 487هـ/1094م، والذي تحدث عن بلاد السودان على نحو أوسع مركزاً على مدنه الكبيرة واتصال بعضها ببعض، والمسافات بينها[11].

لقد تعرف المؤرخون والجغرافيون المسلمون على إفريقيا جنوب الصحراء من خلال وصول التجار والمهاجرين العرب المسلمين إلى مدنها عاماً بعد آخر، وكذلك من خلال ظهور الدول والممالك الإسلامية في المنطقة، لذلك نجد أن من تعرض لتلك المنطقة من الكُتّاب لم يترك تحديداً واضحاً ودقيقاً للمنطقة ككُل، بل اقتصر كلامهم على المناطق التي زاروها، أو سمعوا عنها فقط[12]، على أن هذا لا يمنع من تأشير حدودها.

فإذا ما تمت العوُدة إلى معرفة المؤرخين والجغرافيين المسلمين على المنطقة معرفة تدريجية، فسنلحظ أن المدة المحصورة بين عصر الفزاري[13]، وابن حوقل خالية من زيارات المنطقة باستثناء وصول ابن حوقل إلى مدينة أودغست لتسجيل ملاحظاته ومشاهداته[14]، أما الآخرون فقد كانوا يعتمدون في معلوماتهم عن المنطقة على المعلومات التي تصل إليهم من هناك، أو نقل الحكايات الأسطورية عنها والموروثة عن العصر القديم، ولهذا فقد اختلط الواقع بالخرافة وجاءت معلوماتهم غامضة ومضطربة، فضلاً عن حاجز الصحراء فقد ساهم البعد الجغرافي للمشرق الإسلامي عن المنطقة في تكثيف حالة الضبابية التي تكتنف المعلومات المتوافرة[15]، ومن الجدير بالذكر أن العديد من مناطق بلاد السودان ظلت مجهولة بالنسبة لمؤرخينا إلى مدة متأخرة حتى أن المؤرخ الوزان، اعترف بجهله ببعض المناطق، وذكر أنها تُقسم إلى عدة ممالك وأن بعضها مجهولاً بالنسبة لهم وتكون بعيدة عن مدى تجارتهم[16].

كما أن من البديهي أن يكون هناك تفاوت في تحديد الموقع الجغرافي بين المؤرخين والجغرافيين، فكتابات ان عبد الحكم مثلاً كانت تقتصر على المناطق الملاصقة للصحراء، وذكر الحملات الاستطلاعية الإسلامية عليها، وقد أشار إلى فتح القائد عقبة بن نافع الفهري لمدينة كوار[17]، سنة (46هـ/ 666م)، وحملة عبيد الله بن أبي عبيدة إلى أرض السودان سنة (116هـ/734م)[18]. لذا جاءت معلومات ذلك المؤرخ عن موقع بلاد السودان مقتصرة على معلوماته عن المناطق التي وصلتها تلك الحملات. وكان الأمر مختلفاً عند المؤرخ اليعقوبي الذي تكلم على نحو أكثر تفصيلاً عن منطقة السودان الغربي ولاسيما دولة مالي[19]، واستمر الأمر عند بقية المؤرخين بعده من خلال الكلام عن موقع بلاد السودان على نحو مختصر، حتى تحديده بدقة من قبل الجغرافيين الواحد تلو الآخر.

فقد أشار ابن حوقل المتوفى سنة (367هـ/977م) إلى بلاد السودان بدقة من خلال وصف حدودها، ذاكراً: ((أن حداً لها ينتهي إلى البحر المحيط، وحد لها ينتهي إلى برية بينه وبين أرض المغرب، وحداً له ينتهي إلى برية بينه وبين أرض مصر على ظهر الواحات، وحداً له

ينتهي إلى البرية التي لا تنبت ولا عمارة فيها لشدة الحر))[20] .ويبدو من خلال النص وضوح الرؤية بالنسبة لابن حوقل فيما يتعلق بالموقع الجغرافي. على الرغم من أنه لم يتوغل داخل المنطقة واكتفى بالوصول إلى مدينة أودغست[21]، وبقية المدن الصحراوية القريبة من بلاد السودان.

ويركز الجغرافي الزهري على المدن الواقعة على حدود بلاد السودان في تحديد الموقع الجغرافي، فيذكر: ((أنه أكبر جزء في معمور الأرض فحده في الشمال من ساحل البحر في المغرب إلى بلاد ازقي[22]، إلى بلاد المرابطين إلى مدينة وارقلان[23]، إلى صحراء المغرب إلى أول عمل مصر، وكذلك حده في الجنوب من مدينة ازقي في الشمال إلى خط الاستواء في الجنوب))[24] ويتضح من خلال وصف الجغرافي الزهري لموقع بلاد السودان الجغرافي، أن أولئك الجغرافيين قد تعاملوا مع مفهوم المكان بوصفه معطى مجرد، (تقسيم الأرض إلى أقاليم)، أو معطى جغرافي، ((رصد مواقع بلاد السودان ومدنها ومسالكها))، وأنهم يتكلمون على نحو عرضي عن القبائل السودانية التي تشغل المنطقة[25]، كما لم يختلف الجغرافي القزويني عن سابقيه في وضع حدود بلاد السودان – سوى في التسمية–، فجعل حدًها من الشمال بلاد المغاربة، ومن الجنوب إقليم المغرب ومصر،ومن الغرب المحيط الأطلسي، ومن الشرق بلاد الحبشة[26]، إلا أن هذا التقسيم لا ينطبق والواقع إذ إن جنوب بلاد السودان تقع منطقة الغابات الاستوائية .

لقد تم تقسيم بلاد السودان إلى ثلاثة أقسام[27]، وهي الشرقي والغربي والأوسط حسب الموقع الجغرافي لكل منها، ومن الجدير بالذكر أن هذا التقسيم لم يكن معتمداً من قبل المؤرخين المسلمين، إذ تعاملوا مع المنطقة كوحدة متكاملة تحت اسم ـ بلاد السودان ـ ، إلا أن ذلك لم يمنع من أنهم تحدثوا عن كل جزء منها ـ ولاسيما الجغرافيون منهم ـ بعد تقسيمها إلى أقاليم وأرباع، فحينما يتم الحديث عن السودان الشرقي والذي يشمل الحوض الأعلى والأوسط لنهر النيل وروافده جنوب بلاد النوبة[28]، نلاحظ أن أحدهم قد جعل معظم مدنه في الربع الرابع الواقع جنوب بلاد المغرب ويقول عنه: ((وهو بلد السودان من الزنج والحبش والبجة والنوبة وفزان ...))[29]. كما يجعل المؤرخ ابن خلدون المنطقة واقعة ضمن الإقليمين الأول والثاني، ويذكر أن سكانها ((هم الحبشة والزنج والسودان)) [30]

ثانياً : التركيب السكاني :

إن مسالة دراسة التركيب السكاني في إفريقيا جنوب الصحراء واسعة ومتشعبة، وتحتاج

إلى دراسة خاصة إذا ما أريد تغطيتها على نحو كامل، وفي سياق دراسة الموضوع سيتم التركيز على أبرز المجموعات السكانية في المنطقة قبيل الإسلام، وكما موضح أدناه:

1- **مجموعة شعوب الخوسان** وتشمل (البشمن والهوتنوت) المتواجدة في مناطق متفرقة من إفريقيا، إلا أنهم لا يمثلون اليوم سوى أقلية في جنوب وجنوب شرق إفريقيا وغربها، ويمتاز أبناء هذه المجموعة بقصر القامة أما لون بشرتهم فهو بُني أو أصفر، ويمتاز من ينتمي إلى هذه المجموعة بالشعر المفتول، إلا أن ما يميزهم عن بقية المجموعات السكانية أنهم يمتلكون عجز ضخم لاسيما لدى النساء وأنهم من زمر دموية مختلفة، ويُعتقد أنهم أصل سكان القارة الإفريقية[31].

2- **الأقزام**: ويمتاز أبناء هذه المجموعة بكونهم قصار القامة ويمتلكون لون بشرة بُني، ويتركز أبناء هذه المجموعة في الغرب الأفريقي إلا أنهم اختلطوا مع الزنوج في الشمال والبشمن في الجنوب إذ تركزت في مناطق الكونغو والساحل الغربي[32].

3- **المجموعة الزنجية**: وهي من أكثر المجموعات السكانية انتشاراً في المنطقة وتتفاوت ألوان بشرة السكان حسب مناطق سكنهم، ففي غرب إفريقيا يكون لون البشرة أسود فاحم، وفي شرق وجنوب إفريقيا يكون لون البشرة بُني فاتح، ويسمى أبناء المجموعة الأولى بالزنوج الحقيقيين[33]، وهم سكان المنطقة الممتدة من جنوب مقديشو[34] إلى سفالة[35]جنوب الساحل الشرقي لإفريقيا[36]، وقد بدأت طلائعهم الأولى بالخروج من داخل القارة الإفريقية إلى الساحل قرابة منتصف القرن الأول الميلادي[37]، أما المجموعة الثانية فتسمى (بزنوج البانتو) ويقترب أبناؤها من قصر القامة ويسكن أغلبهم غرب أفريقيا، وتضم المجموعة الزنجية أيضاً الشعوب النيلية ذوي الأجسام الطويلة والألوان الفاتحة[38].

ويذكر المسعودي أن الزنج قد اتخذوا بلاد الواق واق – أقصى جنوب سفالة – دار مملكة، واتخذوا لهم ملكاً أطلقوا عليه لقب (وقليمي)[39]، وينقسم الزنج إلى قبائل عديدة وكل قبيلة لها منطقة نفوذ خاصة بها، ويعيشون حياة بدائية طابعها النزاع المستمر، ومنهم ((أجناس محددة الأسنان يأكل بعضهم بعضاً))[40].

4- **المجموعة القوقازية** : ويتواجد أبناء تلك المجموعة في شمال وشمال شرق إفريقيا، فالشماليون يسكنون مناطق البحر الأبيض المتوسط، وألوانهم بين الأبيض الفاتح والبُني الفاتح، أما الساكنين في شمال شرق إفريقيا فألوانهم تميل إلى الأسود في الصومال، وعلى العموم شعرهم متموج ومنهم من يكون شعره مُرسل ومنهم من يمتلك شعر مفتول[41].

وكانت مجموعات منهم قد مدت مناطق سكناها إلى أغلب مُدن الساحل الشرقي لإفريقيا والبحر الأحمر[42].

لقد اقتضت متطلبات البحث التنويه إلى بعض المجموعات السكانية التي تفرعت عن المجموعات السكانية التي تم التطرق إليها في بداية الفصل والتي لعبت دوراً أساسياً على مسرح الأحداث وورد اسمها في ثنايا الكتاب، ويأتي في مقدمتها الماندنجو الذين تأسست على أيديهم دولة مالي، وتقع مواطنهم الأولى في منطقة كانجابا في الأودية العليا لنهر السنغال[43]، والتسمية المتداولة لهذه القبائل فضلاً عن اسمها الأصلي الماتنكا أو الماندن، وكلمة ماندنجو تعني في لهجة السوننك (عند السيد)، كما أن هناك تفسير آخر للكلمة وهو (ابن الأم)[44]، وربما يكون التفسير الثاني هو الأقرب للصحة انسجاماً مع تمسَك السودان على نحو عام بالنسب للأم. ويبدو أن قرب إفريقيا جنوب الصحراء من المغرب العربي والعلاقات التجارية القديمة بينهما ووصول الكثير من قبائل المغرب إلى إفريقيا جنوب الصحراء والتي كانت تؤمن ولفترات متأخرة بذلك النسب كانت سبباً في نقل تلك الفكرة إلى المنطقة .

والماندنجو هم إحدى القبائل الناطقة باللغة الماندية، والتي من أهمها السوننك[45] ويعرفون أيضاً بالماندين الشماليين تمييزاً لهم عن الماندنجو الذين يعرفون بالماندين الجنوبيين، ويكَون مجموع القبائل الناطقة باللغة الماندية وحدة لغوية، إلا أنهم يتمايزون في تنظيمهم السياسي، وبعض الشيء في معتقداتهم، ولكنهم وعلى العموم عملوا على نشر النظم الماندية في مجال الزراعة والمعتقدات، والأبعد عمقاً من ذلك نشاطهم في تحقيق وحدة حضارية للشعب السوداني[46].

وهناك فئة سكانية أخرى وهم السنغاي، الذين ترجع أصولهم إلى سكان مناطق الهوسا جنوب نهر النيجر في أقسامه الشرقية، وقد هاجر السنغاي منذ القرن الأول الهجري / السابع الميلادي قاصدين المناطق القريبة من ثنية نهر النيجر وعملوا بصيد الأسماك، ولم تكن لهم صلة بحضارة الماندنجو إذ إن لهم لغتهم وتقاليدهم الخاصة المختلفة عن بقية الشعوب الناطقة بالماندية[47]، فضلاً عن ذلك فإن للبربر دور واضح في تكوين الخارطة السكانية بعد الإسلام لاسيما بعد تدفقهم إلى الصحراء الكبرى والمناطق الواقعة جنوبها بحكم التبادل التجاري المستمر بين جانبي الصحراء وما نجم عنه من تداخل وتزاوج بينهما، إذ كان سيل الوافدين إلى المنطقة تجاراً ومهاجرين مستمراً طيلة أيام السنة، كما كان لبعض الأحداث السياسية الجارية في بلاد المغرب دور في دفع أعداد من السكان باتجاه الصحراء، ومن ثم إلى داخل إفريقيا جنوب الصحراء .